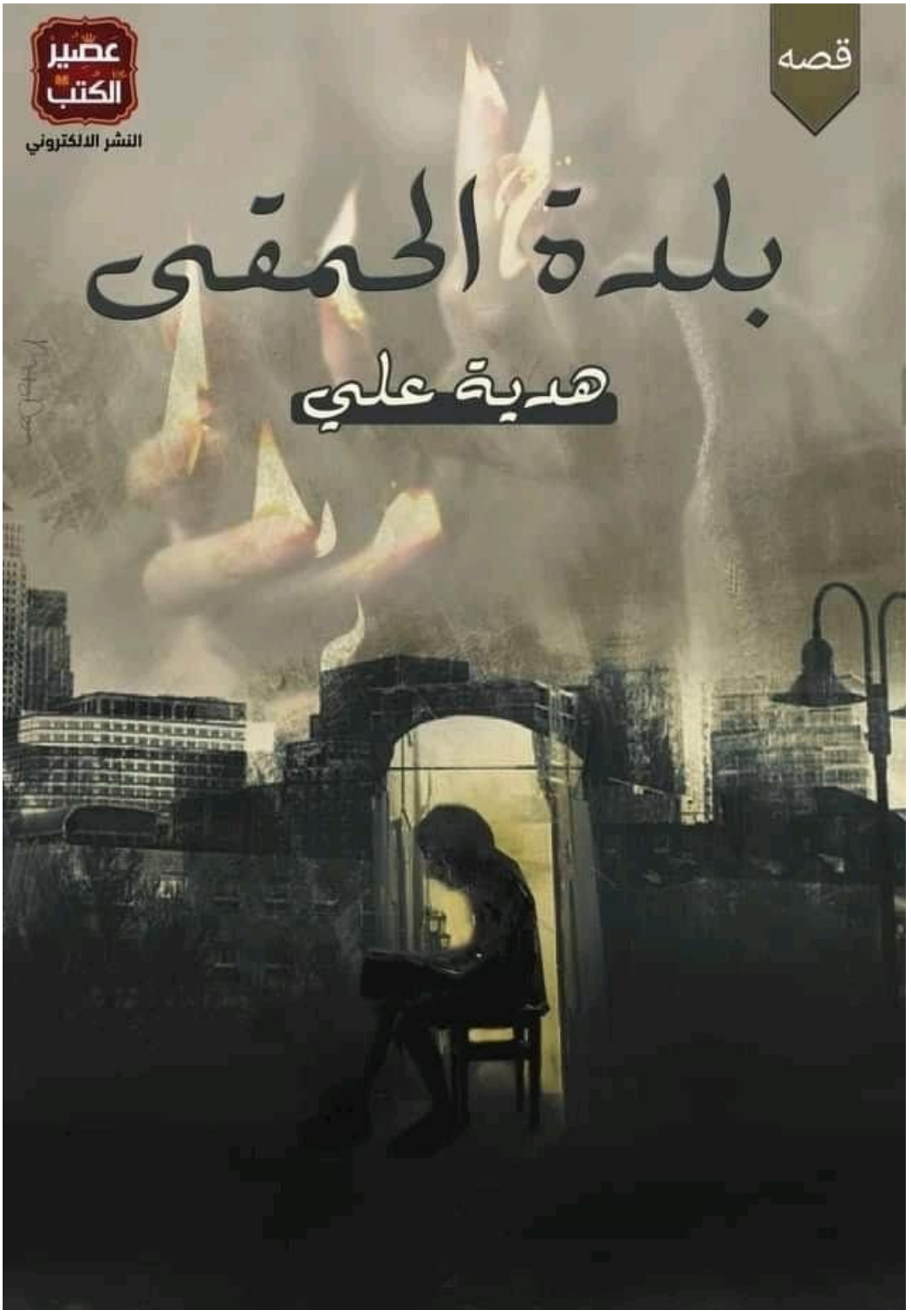
قصه
عصير الكتب
النشر الالكتروني
بلدة الحمقى
هدية علي

إهداء..

- إلى أمي و أبي، ولكل من آمن بي لحظة.. 💙

في بلدة غريبة الأطوار، ذات طراز قديم جدًا يدل على أنها منذ عدة قرون متواجدة حتى يومنا هذا، يعيش بها سكان عاديون لا يعرفون للعلم شيئًا، يجهلون ما تم معاصرته، وكأن طرازها أوقف تفكيرهم وجعلهم مبلدين العقول والحداثة، لكن ينطبع على وجههم الخير كل الخير، يساعدون بعضهم بعضًا، وهذا الرجل يساعد الطفل الذي سقط أرضًا وهو يلعب، وهذا الفتى يمسك نقودًا بيده وكأنه يتجه لامرأة في مثل عمر والدته ربما ليخبرها بأن هذه النقود قد سقطت منها؛ فتقتسمهم معه، وتثني عليه. وهذه الفتاة تسير مع جدتها تمسك ورقة وربما تكونان ذاهبتان لاستشارة طبيب! لكن لحظة أنا طبيب.. وأتيت لهذه البلدة منذ البارحة، لم أفعل شيئًا غير الراحة في فندق كانوا يطلقون عليه أفضل فندق في هذه البلدة، وهو الذي لا يعد فندقًا من الأساس، هذا من الممكن أنه يطلق عليه نُزُل، ومن الغريب أنني أحسست بالراحة والأمان ولم أدرِ ما السبب، لكن دعونا نقول بأن الحياة هنا تبعث للنفس راحة مجهولة المصدر، ربما من مقابلة واستبشار وجوه سكانها! وربما من بساطة الجميع في تعاملاته معًا! ربما!

تحركت سريعًا للفتاة وجدَّتها وأنا أضع حقيبتي على ظهري، ركضت خطواتٍ حتى وصلت إليهما سريعًا فكأنما كانتا تمشيان كالسلحفاة لصعوبة السير على الجدة، والفتاة لا تبدي أي ضجر من مرافقها لها! ناديت بصوت مرتفع قليلًا - حتى يُسمع- بقولي:

- يا آنسة انتظري رجاءً أريد مساعدة..

التفتت الفتاة لي وهي تسند جدتها واضعةً يدها على ظهرها واليد الأخرى تضعها على يدها التي تمسك عصا تساعدها على السير، نظرت لي فكانت فتاة في عمر الخامسة والعشرين سمراء البشرة ذات ملامح مبهجة عند النظر إليها، ترتدي ملابس غريبة قليلًا، تفرست في ملامحها ولكنها لم تنطق فكانت تنظر فقط لي وكأن على محياها كلمات تقول ماذا تريد يا هذا! ثم أخيرًا نطقت وقالت:

- نعم، بمَ أخدمك؟

يا لهذا اللطف! لم تنعتي بكلمات بذيئة تدل على عدم احترامي، أو حتى لم أشعر من خلال كلماتها أنها متضايقة مني عندما أوقفتها في منتصف الطريق!

ثم ابتسمت وأنا أقترب منهما، والجدة تلتفت نحوي وتنظر بهدوء لي وقالت:

- يبدو أنك غريب عن هذا المكان يا بني؟

أجبتها سريعًا وأنا أبدي شعوري بالضجر وقلت:

- نعم، أنا غريب عن هنا، لا أعرف أي أحد هنا، أنا طبيب أتيت بمهاتفة أحدهم بأنه يحتاجني في هذا المكان، لكن لا أستطيع الوصول لمن هاتفني أو حتى مجمع الأطباء.

نظرت كلاهما لبعضهما بقلق انتاب وجهيهما ثم قالت الفتاة وهي تساعد جدتها لتتابع السير:

- لا نستطيع مساعدتك، أنا آسفة.

دهشة احتلت ملامحي وأنا أراهما يذهبان من أمامي! كلهن واحد ربما أخطأت الفراسة هذه المرة، ولكن ما معنى أنها عرضت عليّ المساعدة في البداية، والآن غيّرت رأيها بقلق بات واضحًا في خطواتها المتسارعة مع

جدتها، حاولت نفض هذه الأفكار وحاولت ألا أغضب حتى، لكن كنت أريد كثيرًا أن أدك رأسيهما معًا، أو حتى أن أجعلهما في غرفة تشريح وأغلق عليهما الباب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل! هذا ما قد يجعلني أنفض هذا الغضب بهذا..

ثم تابعت سيري وأنا أستغرب من المباني، المباني هذه تختلف عن المباني في أول البلدة، سرت كثيرًا في هذا الطريق الذي كانت تحيطه كثير من الضوضاء، لا أحد يسكت هنا عن الحديث، ودون قصدي وجدتني أسقط أرضًا بعد اصطدامي برجل ما، نظرت له وكدت أفرغ عليه كل غضبي حتى وجدته يقول سريعًا:

- أنا آسف جدًا أيها الطبيب، لم أكن أقصد لكن هذا القدر أحيانا يسقطنا وأحيانًا يرفعنا لكيلا نسقط..

رفعت حاجبي باستغراب وكدت أسأل وأبدى استغرابي، لكنه وقف وأمسك بيدي وساعدني على الوقوف، ثم نفض الأتربة عن ملابسه وهو يقول:

- لا تقلق، أنا لست عالمًا بالأرواح، ولا حتى قارئًا للأفكار، أنا ضَيّ أعيش هنا في هذه المنطقة وبيتي قريبٌ من هنا، ولي علم بالفراسة، تعلمتها بشكل جيد، أنت تبدو غريبًا عن هذا المكان حتى إن رآك ولد صغير كان قد يقول هذا، وأنت طبيب، لا لأجل نظاراتك الطبية هذه، ولا لساعتك، بل لتفاصيل وجهك، دعني احذر أتيت لهنا لأي سبب!

كدت أتحدث لكنه أكمل وهو يضع يده على ذقنه وبدا يفكر قليلًا وهو يغلق عينه اليمنى بشيء قليل:

- أنت الطبيب المدعو لعشاء يوم الغد أليس كذلك؟

نظرت لوجهه بعدم فهم وجعلت أقول بتركيز:

- كيف يعني أنني مدعو لعشاء الغد، وكيف علمت بذلك حتى!

= لا تقلق أنا أربط الأحداث ببعضها، إذن أنت طبيب فعلًا.

ثم قفز قفزة بسعادة لإصابته وهو يتمتم ببعض الكلمات بابتسامة وأمسك بيدي وسار بي وهو يكمل:

- سأخبرك بكل شيء أيها الطبيب، ما اسمك؟

= جاسم اسمي جاسم.

- يا لهذا الاسم الغريب! من أي بلدة أنت؟

= من..

ثم صمت وأكملت:

= ولكن لماذا تسأل؟

أكمل سيره وهو يمسك بيدي ويشدها وبهذه الطريقة يشدني معه ويقول:

- هنا في هذه البلدة أيها الطبيب جاسم كل عام يقوم الكاهن بمهاتفة طبيب ما، ليسرع في معالجة مريض، وليس من مريض هنا! لا تستعجب! كل من أتوا يستعجبون، ولكن يبدو عليك الذكاء، لا تقلق أيها الطبيب أنت ستكون في مأمن، لكن بصعوبة يمكنك الذهاب من هنا، ستكون واحدًا من أهل البلدة أو يتم تصعيدك للبلدة المجاورة لتتعلم المسايفة للمشاركة في الحروب..
الكاهن الأكبر هنا سيتم عقد وليمة في الغد وسيشرف على مصيرك في هذه البلدة، في هذه الوليمة أو العشاء ستتخير بثلاثة اختيارات، وعلى حسب اختيارك تستطيع التحكم في مصيرك أيها الطبيب.

حاولت فهم ما يقوله لكن الكلمات كانت كبيرة على رأسي، وكأنني قد أصبت بشلل في التفكير، لكن نظرت لوجهه وقلت بقلق بالغ وظاهر على محياي:

- هل لهذا الأمر تركتني الفتاة وجدتها عندما حاولت معرفة مكان المجمع الطبي هنا! لكن لماذا يفعلون هذا يا ضَيّ؟

بدا حزينًا وقال:

- لا علم لي بشأن الفتاة، ولكن للأسف هذا الكاهن قد مات له ولد على يد طبيب، كان هذا الطبيب ينطق كلمات غريبة ربما كانوا يقولون بأنها لاتينية! لا أدري هل هي أم لا! لكنه بدأ يبحث منذ أعوام عديدة عن معناها، بل وعن مكان قدوم هذا الطبيب، ومنذ ثمانية أعوام كان يستدعي كل سنة طبيبًا يتعلم هذه اللغة في بلده، وأنت التاسع..

بدوت شاردًا شاحبًا حتى قال هذا الشاب وكأنه يهدئ من روعي:

- أنا آسف لقولي هذا أيها الطبيب، أنا فقط أفتح آفاق عقلك لما سيتم الغد، يجب أن تستريح الآن وسأجيبك على كل أسئلتك..

توقفنا معًا أمام منزل بطابق أرضي واحد، يبدو عليه القِدَم، قام ضي بدفع الباب ودخلنا معًا ثم أغلقه، وسار عدة خطوات للداخل وطلب مني الجلوس على أريكة مصنوعة من الخشب لا تتسع إلا لفردين.. ثم غاب عن نظري وقبلها أخبرني بأنه سيعد لي شرابًا أشربه لكي أتمكن من الهدوء.

بعدها بقليل أحضر بكأسين وبهما شرابًا لونه مائلًا للبياض.. وضعهما أمامي على طاولة وجلس على أريكة أخرى على يميني، ثم أمسك بأحد الكأسين ومده لي وقال:

- هيا اشرب هذه، وستكون بخير، سنفكر في هذا سويًا..

أمسكت الكأس وبدوت أفكر لدقائق ثم بدأت أشرب حتى أفرغته، لكن كدت أتحدث حتى أحسست بتنميل في أطرافي، أحسست بأحد يصفعني ليهلك طاقة جسدي، اغرورقت عيناي بالدموع، وبدا النظر أمامي مشوشًا حتى وجدت أحدهم يخرج من غرفة مقابلةٍ لي، وضعت يدي على عيني، بدأت أفركهما حتى استطعت بصعوبة تمييز من خرج من هذه الغرفة، إنها الفتاة

ذات البشرة السمراء التي كانت تسند جدتها! ما هي العلاقة بينها وبين ضي يا ترى؟

اقتربت هذه الفتاة وأبعدت الطاولة من أمامي ورفعت وجهي وهي تمسك بشعري، لتجعل نظري على استقامة مع نظرها، ثم ابتسمت وجعلت تضحك بصوت مزعج وهي تتبادل النظر بيني وبين ضي..

ثم أخيرًا تحدثت وقالت:

- يا لك من مغفل! أكل ما رأيته ظننته حقيقي؟ لم نعلم أن مهمتنا هذه ستكون سهلة.

ثم نظرت لضي وقالت:

- أليس كذلك صديقي؟ لقد استطعنا خداعه، أراهنك بمئة دولار أمريكي يا ضي أنه صدّق قصة الكاهن الأكبر! يا لك من غبي حقًا يا جاسم!

ثم تركت رأسي بعدما أسندتها على الأريكة وأنا في حالة شلل كامل لا أستطيع الحراك، ومن ثم وقفت وأخذت حقيبة ظهري وفتحتها، وقلّبت في معداتها حتى وصلت لكتاب ما، ورفعته أمام نظري وقالت:

- هذا ما جلبناك بسببه أيها الحزين، أتدري لماذا! لأنه قد حكم علينا بالإعدام من مالك البلدة في الغد إن لم نأخذ هذا الكتاب، وها قد أخذناه بطريقة ما! لا أحد يعرفها غيرنا، أنا وأنت وضي، ربما تقول لماذا؟ سأخبرك أيها المسكين. هذا الكتاب يقدر بثمن غال جدًا في هذه البلدة والبلدة التي بجانبها وهي بلدتنا المتطورة عنها، سأخبرك بسر البلدتين، لا أحد يستطيع الخروج منهما دون أن يأتي بكتاب مثل هذا، أو حتى بشيء مادي ثمين، وأنا وضي نريد أن نذهب لبلدنا الأم، فقد تم دعوتنا مثلما دعوناك يا أخرق.. لذلك أنت هنا..

دعني أخبرك بأني أشفق عليك.. ولكن لقد وقعنا معًا أنا وضي في هذه المعضلة، وتم وَشمَ وَشمٌ يدل على رمز هذه البلدة في يدنا، وهذا يدل على من أخذ الكتاب قد خرج ونحن بقينا مكانه، حتى نستدعي شخصًا ما ونحتال عليه قبل سنة من مكوثنا هنا..

لم أستطع الصمود أكثر حتى غبت عن الوعي لفترة ربما قد طالت..

لكنني بعدما استيقظت وجدتني نائمًا في غرفة ما، فوقفت منتفضًا بعدما تذكرت ما حدث، أسرعت بالخروج من الغرفة كان المكان هادئًا، لا أحد بالمنزل، ونظرت ليدي على أمل ألا أجد ما قالت عنه! لكني صعقت عندما وجدت وشمًا على يدي مثلما رأيته على يدها ويد ضي...

لم أتمالك أعصابي صرخت صرخات متتالية وأنا أنعت نفسي بالجاهل، كيف لهم بخداعي هكذا! لكن لحظة لا بُدّ من أنهم لم يذهبوا بعد، أظن أن الشمس لم تغرب بعد..
خرجت من هذا المنزل ونظرت للسماء فوجدت الشفق الأحمر، اطمأن قلبي قليلًا لعدم نومي كثيرًا، تجوّلت في المنزل وقلّبت في أشياء، ووقع نظري على صورة ما كانت معلقة على حائط غرفة فيه، أمسكتها ودققت النظر فيها حتى علمت بأنها تنتمي لهذه الفتاة ولضي، وهذا منزلهم.. تملكني الغضب وكدت أعيدها في مكانها لكنني وجدت كتابًا معلقًا كان وراء هذه الصورة، أمسكت به ونفضت الغبار عنه وتلمست بيدي النقوش على غلافه، سرت حتى جلست على أقرب مقعد، بدأت أقلب في صفحاته بدهشة عجيبة، نظرت للنقوش في صفحاته بتفحص حتى وجدت ما أشعل فكري، وجدت الوشم في يدي منقوشًا في صفحة من صفحاته وتحديدًا الصفحة رقم ٩، لكن لحظة! أخبرني ضيّ بأنني الطبيب التاسع هنا! الكلام صحيح إذن!

تفحصتها جيدًا فكانت تشبه القلب المكسور والقفل عليها، وربما سيدة عجوزة تنادي طفلًا بجانبها، أو ربما يكون رجلًا يركض، لم أتبين بالضبط ما يحمله الوشم من معنى لكنني تيقنت من قراءتي لهذه الصفحة أن كلام الفتاة صحيح، لن أستطيع الخروج من البلدة قبل سنة من الآن، ويحتم عليّ المكوث هنا.. قلبت الصفحة بعدها فوجدت الصفحة العاشرة نصفها مكتوب وباقي الكتاب لا يوجد به حرف واحد، تنفست بقلق وأنا أحاول فهم ما يدور حولي وفهم هذه الكلمات في هذه الصفحة، أعدت قراءتها مرات عديدة لكنني لم أفهم حرفًا واحدًا، أغمضت عيني وبدأت أفكر بهدوء وتروٍ، ثم حاولت

ربط الأحداث ببعضها، لم أفهم في هذه الصفحة إلا جملة واحدة، الغد بين يديك، فأنقذ نفسك وغيرك.. ما هذا الهراء؟ كيف يكون الغد بين يدي وهو بيد الله في الأصل! جعلت أعصر عقلي مرات عديدة حتى أفهم على الأقل ما يُرمى لهذه الجملة! وأنا أفكر وأنظر لزاوية ما من الغرفة لمحت شيئًا لامعًا، أمسكت الكتاب بيدي ووضعت إصبعي على الصفحة التي أقرأ فيها كيلا يغلق، أو تضيع الصفحة، أو تمحى فربما تكون نور الأمل.. ووقفت سريعًا ذاهبًا لهذا ربما تكون إشارة!

اقتربت منها ووجدت الإضاءة تزيد كلما خطوت نحو الحائط، أبعدت ما يمكن إبعاده عن الحائط وشاهدت بوضوح شرخ قديم فيه ينبعث منه هذه الإضاءة، حاولت بصعوبة بالغة أن أصل بيدي لما أريد لكن لم يحدث؛ فحاولت مجددًا غير أني لا أذكر ما حدث إلا بشعوري بهزة أرضية تجتاح كياني، واستطعت العبور للجزء الآخر من الحائط، تنفست الصعداء، جعلت أطرافي تهتز من القلق والصدمة لم أكن أعلم ما حدث! ولم أفهم كيفية انتقالي إلى هنا حتى! نظرت ورائي لأجد الحائط بنفس الطلاء وبنفس الشرخ الموجود فيه، تفحصته لكني لم أجد أي شيء فيه يكون لامعًا!

التفت للمكان الذي أنا فيه الآن، حتى وجدتني ربما في غرفة أو زقاق صغير، لا أستطيع التمييز، سرت بخطوات متثاقلة للأمام، فلا أعلم بما سيحدث، وجدت أخيرًا أنني خرجت من هذا الزقاق لطريق واسع يحيطه العديد من البيوت ذات الطراز الفخم التي هي أرقى من البلدة العجيبة التي كنت فيها، جلست في زاوية من الطريق وفتحت الكتاب حيث وقفت ويا للعجب! وجدت الصفحة قد اكتملت! شعرت بأني في الطريق الصحيح وربما في الغد سأعود لمنزلي..
بدأت أقرأ باقي الصفحة وكانت مفهومة قليلًا بغض النظر عن الكلمات الغريبة التي أراها لأول مرة، ربما هي كلمات متداولة بين أفراد المنطقة، إذن لا بد لي من الوصول إلى أي أحد من هذه المنطقة ولم أكمل كلامي حتى وجدت شخصًا يقترب مني ويتوقف أمامي، نظرت له وتساءلت من يكون! حتى نظر لي نظرة هادئة وقال:

- لا تقلق، أنا اسمي فاروق، أعيش هنا، لكنني شعرت بأحد يحتاج لمساعدة فخرجت من منزلي حتى وجدتك، وعلمت أنك تحتاج مساعدتي..

نظرت لوجهه بدهشة، ولم أعره أي اهتمام، يا لهؤلاء الحمقى! ماذا يريدون مني الآن؟
لم أجبه بشيء وظل واقفًا طويلًا في نفس مكانه، ثم نظرت له وقولت:
- هل تعلم ما معنى الغد بين يديك؟

ابتسم وقال:
- ومن منا لا يعلم! هذه الجملة مكتوبة في كل مكان في البلدة وفي كل بيت تتناوب منذ أسبوع.

طلبت منه الجلوس ومن ثم أكمل وأنا أتابع باهتمام بالغ:
- والمقصود هنا يوم الغد بالفعل، إنه اليوم الذي بنيت فيه هذه البلدة، والتي جعلت مزارًا سياحيًا، ولكن للأسف لم تكن تنعم بكل الحرية، فجاء غزو واحتلها، وصارت ملكًا لهم، لا يروح ولا يذهب أحد فيها إلا بأمر من ملكها..

كدت أتحدث لكنه غيّر نبرة صوته قليلًا وأكمل:
- يعتاد الناس هنا منذ سنين وجود أشخاص غرباء في كل سنة قبل هذا اليوم لا أحد يعلم بالتحديد لماذا، وبعدها يختفون!

شعرت بألم في معدتي وكأنه يخبرني بدنو أجلي بعد ساعات!!
ثم جعل يعقب وهو يقول بنبرة منخفضة:
- لكني تسللت غير مرة لقصر ملك البلدة أو حاكمها بمعنى أصح، وحاولت فك الرموز واستطعت تمييز بعض الكلمات بينه وهو يتحدث عن هؤلاء الأشخاص..

= إذن ماذا سمعت؟

قلتها بكل تلقائية تحمل في طياتها نبرة ترجٍ، فمصيري الآن اكتشاف هذه الكلمات وهذا اللغز..

أكمل وهو ينظر للكتاب بيدي وقال:
- ربما أنت المدعو هذه السنة!

يمكنني القول بأنه اجتاحني القلق، ولم أتحدث فأكمل:
- لا تقلق، لقد أخبرتك أنني أحاول المساعدة لا أكثر، وسأخبرك بما قد سمعته وإني لأصدقك حقًا ما أقوله.. إنهم جميعًا يبحثون عن شخص مختلف، لا يشابه غيره، في تفكيره وعقله وروحه، ولا يبحث عن مقابل لما يفعله، وإن وجدوه سيطلقون سراح الجميع إن لم يموتوا منذ سنين..

نظرت له وشعرت بالصدق في كلماته وشرعت بقولي:
- هل هذا يوضح معنى الجملة "الغد بين يديك؛ فأنقذ نفسك وغيرك"!

ابتسم وهو ينهض ويقول:
- إذن انتهى دوري سأذهب لمنزلي وعليك السعي كي تنقذ غيرك قبل نفسك، افهم هذا جيدًا..

حاولت طلب الجلوس منه لكني لم أفعل، ورأيته يذهب بعدما ألقيت عليه التحية.
بدأت أفكر كثيرًا، وأن أعمل على تشغيل كافة خلايا عقلي، إذن ماذا يمكن فعله لإنقاذه؟ جعلت كل همي إنقاذ الجميع قبلي، فربما عائلاتهم يحتاجونهم الآن!
وضعت يدي في جيبي ووجدت ورقة كانت تحمل اسم فندق، إنه نفس الفندق الذي مكثت فيه البارحة، ولكن بعنوان مختلف، ليسعني القول بأنني الآن في البلدة المجاورة للبدة التي كنت فيها وقالت هناك القذر ضي، تحركت قاصدًا هذا العنوان، وسألت الكثير من المارة حتى استطاعوا أن يدلوني له، وصلت له فكان شبيهًا بما مكثت فيه لكنه أحدث بعض الشيء، تقدمت للداخل وبدأت

أخبر عامل الاستقبال بأني أود المكوث هنا لهذه الليلة وكم ستتكلف، فسألني عن اسمي ثم قال لي:

- سيدي اسمك مسجل من قبل، ومدفوع لك كل تكاليف هذه الليلة وليلة أخرى أيضًا.

نظرت له بدهشة وتعجب غريبين وسألته:

- منذ متى تم تسجيل اسمي؟

فأجابني بأنه كان واحد قد جاء لهنا منذ أسبوع وسجل بهذا الاسم وأخبره بأنه سيأتي صاحب الاسم بعد أيام..

تمالكت نفسي أمام الجميع وابتسمت وطلبت مفاتيح الغرفة، سرت لها وأنا أنظر للمفاتيح بيدي وصدمت بأن رقم الغرفة هي رقم ٩! تنفست بارتباك حتى وصلت للغرفة وفتحتها.

أضأت الأنوار ووجدتها مرتبة بشكل جميل، مضاءة بشكل مناسب تجولت فيها، ثم تركت الكتاب على طاولة، وبدأت أكمل تجوالي فيها حتى وصلت لغرفة ما صغيرة قليلًا لكنها مرتبة وتعطي الراحة والهدوء لمن سيجلس بها..

أضأت أنوارها ووجدت خزانة بها، تقدمت منها وفتحتها لأجد الصدمة الكبرى أمامي، إنها حقيبة ظهري التي أخذتها الفتاة وضي!

تحركت للوراء بضع خطوات وأنا ألهث وكأني في سباق منذ أسابيع ولم آخذ قسطًا من الراحة، أو أنني في جولة سباحة وأحاول بشدة الوصول للنهاية قبل الجميع! أو أنني على حافة النهاية..

جلست على أقرب مقعد وجدته وأنا أضع يدي على وجهي وأحاول فهم ما يحدث، ما هذه البلدة وما سر ضي والفتاة، لكن لحظة توجد جدتها التي لم تتحدث عنها قبل غيابي عن الوعي! ربما السر عندها..

تمالكت نفسي قليلًا واقتربت من الخزانة وأمسكت بحقيبتي وخرجت مسرعًا من الغرفة وكأنه يوجد شبحًا بها يحاول قتلي، جلست على المقعد المقابل

للطاولة التي بها الكتاب وحاولت تنظيم أنفاسي المتسارعة ومسح حبيبات العرق على جبهتي. وضعت الحقيبة على الطاولة وقمت بفتحها وقلّبت في معداتي، حتى وجدت ما لم يخطر على بالي ١! إنه الكتاب الذي تم أخذه مني، كيف عاد إلى هنا ووضعوه في الحقيبة وجلبوه لهذه الغرفة! بل كيف كانوا يعرفون أنني سأصل لهذه الغرفة من الأساس!
إذن ربما تكون لعبة من أحد أصدقائي هذا ما طرأ على بالي، أو يمكن أنني بداخل لعبة من ألعاب الفيديو! أو ربما أنا نائم وأحلم بأبشع كوابيس على الإطلاق؛ فأنا أجهل ما يمكن أن يحدث بعد خمس دقائق من الآن.

وضعت الحقيبة بجانبي على المقعد وفوقها الكتاب الخاص بي، وأمسكت بالكتاب ذي النقوش البارزة وفتحت الصفحة التاسعة وقلبت للصفحة العاشرة حتى وجدتها اكتملت وعدد ورقات الكتاب تقلصت إلى ثماني عشرة ورقة..
لم يبدُ عليّ الدهشة هذه المرة فقد اعتدت كل ثانية دهشة أشد من الدهشة التي قبلها، جعلت أقرأ في هذه الصفحة ووجدت ما يميزها بساطة سردها، وما استطعت فهمه هو أنا ما يحدث ليس بشرط أنه يحدث توقفت عند هذه الجملة وأنا أمسك بالكتاب لأخرج للشرفة وأتنفس هواءً مريحًا ربما يهدئ من روعي.

أكملت قراءة الصفحة حتى أغلقت الكتاب وبدأت أكرر الجُمل التي استطعت فهمها ولكن لم أفهم ما يرمى بها.
"ما يحدث ليس بشرط أنه يحدث."
"ما تجده ليس بشرط أنك وجدته."
"ما تفكر به للحظة يحول حياتك حتى الموت."

نظرت للطريق وللمارين فيه في هذا الوقت، كأن حقًا بساطتهم أجمل من علمهم، لا يتكالبون للوصول لمستوى أعلى من مستوى جارهم أو قريبهم، هنا الناس سواسية لا يتميزون حتى باختلاف بنيانهم، وكل هذا يضفي عليهم كل راحة وسكينة في الحياة، فلا تجد قاطع طريق أو حتى سارق في هذا

الوقت المتأخر، الأطفال ما زالوا يلعبون في الخارج، وتدعوهم والدتهم بلطف للدخول للذهاب للنوم، لا تعنفهم أو حتى يبغي عليها زوجها لترك أطفالها كما يريدون أن يكونوا أو يفعلوا..
بينما أنا شارد في جماليات هذه البلدة فُكت ساعة يدي وسقطت في الشارع، أسرعت بالدخول للغرفة ثم قصدت الخروج منها ونزلت الدرج حتى وصلت للطابق السفلي وخرجت من الفندق وحاولت البحث عن الساعة هنا وهناك لكني لم أجدها، جعلت أبحث كثيرًا وفشلت في العثور عليها، أصابني الإحباط وأحسست نفسي أشد أهل الأرض فقرًا لعدم امتلاكي لساعتي التي هي هدية من والدتي، لم أتركها أبدًا أو أبعدها عن ساعدي، شعرت بالحزن لاشتياقي لها، ربما الآن تحتاجني، ربما لا أحد يرعاها الآن، ويمكن أنها حزينة بغيابي وشعرها بالثقل عليّ؛ فوالله ما دمت أراها أشعر بالقوة والعطاء والراحة من الله، ليس الثقل وإن مرضت وسهرت ليلًا أداويها، أو حتى وإن بِتُ واقفًا على قدمي أحاول خفض حرارتها حتى تتحسن وأذهب لعملي وأكسب قوتي لأشتري لها الدواء ولا أتأخر عنها، إنها ليست فقط والدتي بل هي محور الكون بالنسبة لي، هي كل شيء وسأحاول جاهدًا ألا أمكث هنا كثيرًا لأعود لها وأتهيأ لمساعدتها.

بينما أنا واقف في الطريق حتى سمعت أحدًا يدعوني

- سيدي هل تبحث عن هذه؟

التفت نحو الصوت ونظرت لليد الممتدة لي، ووجدت ساعتي فأمسكتها وكدت أشكر المتحدثة لكني لم أستطع هذه المرة تحمل الصدمة، إنها الجدة التي كانت تسير مع الفتاة وسألتني هل أنا غريب؟
نظرت لها وقلت:

- أخبريني بكل صراحة، ما هذه اللعبة التي ترسمونها عليّ أنا لست مغفل أو حتى أحمق مثلكم! من أنتم إذن؟

نظراتها لي كأنها كانت تقول من أنت أو كيف تجرؤ على هذا الكلام ورفع صوتك بهذا الشكل على سيدة كبيرة مثلي!
لكنني أكملت وبدوت غاضبًا حد السماء وأنا أخرج كل الغضب عليها:

- أخبريني فقط ماذا تريدون مني؟ والدتي بانتظاري لأعطي لها الدواء، ربنا ستموت من أجل حماقاتكم هذه، اعلمي فقط أن هذا ليس مضحكًا أبدًا، أنتم عبارة عن بعض الناس تمارسون حماقاتكم وجهلكم على أناس آخرين لا ذنب لهم بهذا..

لم تتحدث أو تدافع عن نفسها، لكني وجدت الطريق يمتلئ بالعديد من الرجال والأطفال ينظرون إليّ وكأني قتلت أحدهم، وتقدم لي بعض الرجال يبعدونني عن تلك السيدة وأنا لا ابرح أن أبعد نظري عنها..
ثم أمرني أحد الرجال بالهدوء، وكدت أصرخ في وجهه هو الآخر حتى أخبرني بأن هذه السيدة مصابة بمرض غريب لا تتذكر ما يحدث معها منذ ساعات حتى، وربما كانت تقابلك لكنها بعد ساعات تسألك عن كونك أي شخص له علاقة بها، هل ابنها أو زوجها أنت!

نظرت لوجهها وقد شعرت بالذنب العظيم الذي اقترفته، وابتعد عنه ثم اقتربت من السيدة وأمسكت بيدها لأقبلها وأعتذر منها عما بدر مني، لتهمس في أذني أنها تريد التحدث معي على انفراد..

رفعت رأسي وجعلت أقول أنني قريبها وأعتذر عن غضبي عليها ورفع صوتي وإزعاجهم، حتى ابتعد الجميع عن المكان وانصرفوا لأشغالهم وسرنا معًا في الطريق نبتعد عن الفندق قليلًا، حتى أنني أجزم من وجهها أنها بخير ولا تعاني أي شيء، وكدت أتحدث فوجدتها تقول:
- أتعلم يا بُني! أنا أنتظرك منذ سنوات لتخلصنا من هذا الكابوس..

لم أفهم مغزى كلامها، لكني جعلت أتحدث بعدما توقفنا:
- هل تتذكريني أو حتى تعرفيني؟
= أعرفك نعم المعرفة يا جاسم، لقد استطاعت الطبيبة الوصول لعقلك بعد بلوغك هذا المكان، لم تفعل شيئًا لك أبدًا كل ما رأيته اليوم كان فقط من عقلك وتحريكها له.. حتى تولد فيك الرغبة في الخروج من هنا بأي ثمن، وفي هذه اللحظة أستطيع القول بأنك اقتربت.. والآن مصيرهم بين يديك

يا جاسم، إن حتى أردت الابتعاد عن هذه البلدة والذهاب لبلدك فحاول أن تساعدهم كي لا يعدموا؛ فإنهم أبرياء..

مُرِر كلامها في في عقلي مرات ومرات، لم أشأ أن أوضع في هذا الموقف الصعب حقًا، ولم تخبرني بمَ أستطيع مساعدتهم! وكيف لها بالوصول لعقلي!

انتهيت من الحديث معها وعدت للفندق، وسألت عامل الاستقبال عن مكان حاكم البلدة، فوجدته يضحك ضحكات متتابعة بجاذبية وهو يقول:

- لا أحد يسأل عنه إلا وقد أصاب باله يان، فالجميع لا يعرفون أين يسكن!

عدت إلى غرفتي بعد امتلاء قلبي بالأسى والألم، ما اصل كلامه! وهل فاروق كان يكذب عليّ أم كان يهذي؟
جلست على فراشي ومعي ساعتي التي أعدتها ليدي، وجعلت أفكر بما أستطيع فعله لأنقذ نفسي وأنقذهم، أمسكت بالكتاب وبدأت أقرأ فكانت صفحة جديدة قد ظهرت، انتهيت منها ووجدت الأخرى تظهر، وضعت الكتاب على الطاولة وأنا أردد الكلمات التي وضعت طابعًا في قلبي وكانت جملتين..

"ما يمكنك سماعه من الإنسان ما تريده."

"ما تريده فقط تعرفه بين كل شيء."

تغلب عليّ النعاس، ونمت بشكل جيد، والغريب أنني نمت بشكل هانئ، حتى أنني في هذه الليلة لا أتذكر هل حلمت أم لا؟ ولكن أشعر بأن ضي كان يحاول قول شيئًا لي، لم أستطع أن أتذكر أي شيء، واستيقظت باكرًا كأني ذاهب لامتحان مصيريّ، وهو كذلك، فإن أخطأت توجب عليّ المكوث هنا لعام كامل ووالدتي بحاجة إليّ، وسيموت أبرياء ولم يقترفوا ذنبًا حتى..

بينما أنا جالس وأمسك بحقيبتي وأفكر بما سيحدث سمعت طرقات على باب غرفتي طرقات هادئة ثم لم تلبث إلا أن أصبحت مزعجة وشديدة، وقفت بقلق واقتربت من الباب وحاولت النظر لمن يطرق الباب دون فتحه لكني لم أفلح.. ففتحت الباب بشجاعة لم أكن أتخيل أنها ستأتيني في هذا الموقف الذي

وجدتني محاصرًا من كل مكان، بمجرد فتحي للباب دخل رجلان غرفتي وأحضرا حقيبتي ووجدت رجلين آخرين يأمراني بالخروج معهم فانصعت لأمرهم جميعًا بعد تهديد، خرجنا من الفندق وكانت عربة تنتظرنا صعدناها، ووجدت أحدهم يضربني على رأسي ليفقدني الوعي...

لا أدرك كم من الوقت كنت غائبًا عن الوعي، لكن ما أدركه أنني استيقظت في مكان يشبه لجنة الامتحان، لا أميزه بشدة، شعرت بأني كنت نائمًا لوقت طويل وهربت من الامتحان في هذا الحلم، وهذا ما أريده فحسب أن أخرج سريعًا من هذا الحلم حتى ولم لم أستطع الحل في الامتحان.
لكن للأسف لم يحدث حتى نظرت أمامي لأجد شخصين يقتربان مني ويهيأني للخروج، خرجت معهما لأجد جمعًا من الناس في الخارج، يتوسطهم ثلاثة كتب ورجلين يظهر عليهم الوقار يجلسان على مقعدين مرصعين بالذهب والفضة، النار تشتعل على طرفيهم، واحد منهم على اليمين كان الشيب يقتص منه، والآخر ربما صغير السن عنه بعدة سنوات.. والكثير من الأشخاص يجلسون على أرضية المكان المفروش بسجاد ذي لون أسود، وعلى اليمين استطعت تمييز اثنين متواجدان خلف قضبان حديدية إنهما ضي والفتاة التي لا أعرف اسمها حتى، وأنا أتجول بنظري في المكان وجدت أحد الرجلين ربما كان الحاكم ونائبه هنا، وجدته يتحدث لي ويأمرني بالجلوس، فجلست بتوتر بالغ أمام الثلاثة كتب والنار على جانبي، وابتعد الرجلين عني لينضما للجمع على يساري..

تحدث الآخر الذي كان الشيب قد أخذ منه ما أخذ وقال:

- ربما تعلم أن اليوم يوم الأهلية، وجاء الاختيار عليك.. سنختبرك في بعض الأشياء وإن أجبت بشكل سليم ستخرج من هنا ومعك هؤلاء السجناء، وإن لم تفلح فأعلم أنك لن تخرج من هنا حتى بعد ملايين السنين...

صمت فترة وعقلي مشوش جدًا، والتوتر بات واضحًا على محياي وكأني أقترب من حافة الهوية بسنتيمترات فقط..

ثم أكمل وقال وهو ينظر على الطاولة أمامي..

- أي كتاب منهم ستختار؟

نظرت لثلاثتهم لم أستطع أن أجد فرقًا بينهم، لكن وضعت عيني مذ دخلت لهنا على كتاب واحد أشعر أنه غريب أو مميز فأمسكت به.

ثم أخبرني بأن أنظر للصفحة التاسعة وسألني ماذا أجد؟

نظرت لها فكانت كلها ممسوحة لكني فكرت في كلام الصبي وهو يقول بأنهم يريدون شخصًا مختلفًا، وتذكرت ما وجدته في الكتاب الذي كنت أقرأه في الصفحة التاسعة، وطرأت على عقلي فكرة واحدة فقط الخروج من هنا وقبل الخروج من هنا مساعدة هؤلاء الناس...

نظرت للكتاب لأجد الصفحة ترسم بها يدًا بها وشم ويد أخرى لا تحويه، لأدرك أنني في الطريق الصحيح، فرفعت يدي ومن ثم قولت:

- أرى يدًا لا يعيقها هذا الوشم..

أكمل وقال:

- هل تختار الغد أم الماضي لتصلح أي أخطاء؟

وكأن هذا السؤال أسعدني؛ لأن فاروق أخبرني الإجابة بشكل غير مباشر، فأجبت دون تردد:

- الغد، سأختار الغد..

ثم سأل مرة أخرى قائلًا:

- إن عرضت عليك أموالًا تأخذها وتذهب لمنزلك هل تأخذها، أم تفضّل العيش هنا مع هؤلاء؟

السؤال غريبٌ لحد كبير عليّ، أنا أتيت لهنا في السعي للمال حتى أداوي والدتي بالمال الذي أكسبه، وهذا يعرض عليّ أموالاً طائلة وأن أعود لمنزلي بكل هذه السهولة.. أو هل لهذا العرض من سبب؟

لم أفكر ونظرت لضي على يميني وكأنه يخبرني بألا أفعل، هل أتخلى عنهم بالفعل! أم ألحق بهم وبنفس حياتهم؟ وفي هذه الحالة لن أعود لوالدتي وربما

سأجدها تفارق الحياة.. المال غيّر مفهومي الآن، بل لأتحرى الصدق ليس المال فقط بل خروجي من هذه اللعنة التي حلّت عليّ دون علمي، والآن تساءلت لماذا قد أنقذ هؤلاء وأرفض الخروج من البلدة ما علاقتي بهم! أو ربما ما النفع بوجودهم معي وأنا خارج من هنا، سأختار المال وأخرج من هذه البلدة وأعود لوالدتي سريعًا لأداويها..
لكن دائمًا ما تسألني مماذا جنيت هذا المال! دائمًا تخبرني بأن الكسب الحلال يدوم، ولكن هذا ليس بحرام، هو يكافئني فقط!

صراع بات في عقلي والجميع يتبادلون النظر لي وبعضهم البعض، أصوات ارتفعت وهمساتهم بينهم، لم أفهم ما يحدث، واتخذت قراري وتحدثت بقولي:
- حسنًا، سأختار الما..
ولم أكمل حتى سمعت في عقلي أصواتًا كثيرة، رأيت فاروق ينظر لي ويحاول مساعدتي، ورأيت السيدة التي تترجاني بأن أخرج سليمًا وأساعد الجميع هنا، رأيت جاري الطبيب الذي مات وهو يحاول دفع والدتي من الغرفة التي نشب بها الحريق في منزلي ليساعدها على العيش وأنا غير موجود، وضحى بنفسه مقابل حياتها، ونظرت للنار أمامي.

هنا سألت نفسي سؤالًا هل أتخلى عن الجميع الذين آمنوا بي بهذه السهولة وأعيش عمرًا أحلم بالكوابيس المزعجة وهم يموتون أو تصيح عائلاتهم المرتقبة قدومهم منذ سنوات.
لقد علمت بشأن هذه البلدة، فاروق بالفعل تسلل إلى هنا واستطاعت معرفة ما سيحدث، وبالسر الذي جعل كل هؤلاء تسري عليهم قوانين البلدة، استطعت فك اللغز الآن، وإن لم يساعدني جميع من قابلتهم لكنت الآن أسيرًا سنوات لا لسنة واحدة في هذه البلدة الحمقاء وأنا أتعفن هنا..

هززت رأسي بعدما سمعته يسألني مجددًا:
- ماذا ستختار الآن؟
نظرت لضي ثم نظرت له ولنائبه بجانبه وقلت بكل قوة وإيمان:
- أختارهم، أختاره، أختارها، أنا هنا لأجلهم ولن أتركهم يموتون قبل أن نخرج سويًا، المال لا يعنيني في شيء، وربما كان أشبه بأن اخرج من

هنا ويتحول لتراب بالٍ، أو أن يكون فخًا ولا يوجد من الأصل مال وستجعلني في السجن في النهاية...
حسنًا أختار أن أكون معهم..

صدّق هذا! ما شعرت به هذه اللحظة وأنا أتجرأ باختياري حافة الموت والنهاية – برغم عدم تيقني أن ما وصلت له وما سمعته صحيحًا- صعب لك أن تتخيله، والصدمة الكبيرة هنا يا غفران أن هذا كله أصبح بعد حديثي كذبة أو سراب، حتى حاولت تدقيق النظر عدة مرات لما حولي والانتباه صفر عندي، ولم أرَ غير المكان الذي أجلس فيه وبيدي الكتاب، وفي لحظة وجدت ضيّ يأتي ويجلس بجانبي وبربت على كتفي بابتسامة ويخبرني بأني أحسنت صنعًا، هنا وجدت نفسي في طريق أمام الفندق الذي كنت فيه، ووجدت السيدة العجوز ومعها الفتاة تنظران إليّ وتقتربان من مكاني وتخبرانني بأن البلدة كلها تريدني أن أمكث فيها، ووجدت فاروق يعيد عليّ حديثه وهو يغمز لي بعينه:

- الغد بين يديك، أنقذ ما يمكن إنقاذه وتعلم ما تفعله..

اعتدل أمام غفران وأكمل:

- تعلم أن ما أحسست به طوال هذه الفترة كلها مشاعر متضاربة!

ضحك غفران مطوّلًا وقال:

- تعلم أنني لا أفهم شيئًا منذ ساعات! هل وقت غيابك كله كنت في هذه البلدة؟ وماذا تعني بقولك أنك لم ترَ شيئًا بعد إجاباتك على المالك!

وقف جاسم وسار نحو الشرفة ونظر ليده اليمنى فكان الوشم ما زال باديًا، ثم تأمل الطريق وقال بشرود:

- طوال فترة غيابي كنت هناك حقًا، أو ربما سأكون هناك غدًا...

تمت بحمد الله..